

الحوار وثمراته الإيجابية في الرؤية الإسلامية

عبد الله بن علي العليان *

للحوار في الواقع ثمرات وإيجابيات عديدة في حياة البشر لكونها دعوة ربانية من الله - سبحانه وتعالى- لأنبيائه وعباده جميعاً، وإذا كان الخالق -عز وجل- قد حاور إبليس وهو الذي خالف أمره عندما طلب منه -عز وجل- أن يسجد لآدم وعصى ربه، فلذلك حكمة بليغة للبشرية جميعها في مسألة الحوار وضروراته، ومن هنا فلاشك أن للحوار ثمرات عظيمة للبشرية لأنها دعوة -جاءت- من خالق البشر، وهو العارف بقلوبهم وعقولهم ونفسياتهم، وقد أثمرت الكثير من الحوارات عبر التاريخ الإنساني في مجال الدعوة والتربية والثقافة في إجلاء الكثير من الحقائق والتبصير بها والاهتداء للحق والصواب، وإيجاد المؤمن الصالح والمتواضع والمتوازن في حياته، وأوجدت المثقف المنفتح المبدع والمعرفة الحقة والكلمة الصادقة النافعة، وهناك الكثير من الثمرات في هذا الصدد يمكن سردها في الآتي:

1 - ثمرات الحوار في الدعوة

ثمرات الحوار في الدعوة كثيرة قد لا نستطيع أن نوافيها حقها من الشرح والتبيان، لكننا سوف نوجز بعضها في هذا الجانب، فالقرآن الكريم والسنة النبوية يمثلان بالحوارات الإيجابية وثمراتها في الدعوة بين الرسل -عليهم السلام- وأقوامهم، وكيف كان الحوار هو الدافع إلى عودة الكثيرين منهم إلى الحق والاهتداء إلى الإيمان، فالدعوة في الأساس حوار، والقرآن الكريم - كما يقول الكثير من أهل العلم كتاب حوار بين الحق والباطل، بين أهل الإيمان، وأهل الضلال، بين الكلمة الصادقة النافعة والكلمة الخبيثة المنحرفة، وقد سرد لنا الكتاب الكريم في العديد من آياته كيف تم الحوار بين الأنبياء وأقوامهم وهو في الأساس دعوة إلى الحق، وإلى الطريق القويم، والحق أن الكثير من الخلافات التي تدور بين الناس مردها إلى عدم فهم موضوع الخلاف من كل جوانبه، والنقص، أو الاستقصاء في القضية المطروحة بصورة متكاملة، أو إلى التقليد الأعمى، أو التعصب الذميمة، أو إلى الانقياد للهوى والمنافع الخاصة وغيرها من الأسباب، لكن بالحوار الإيجابي، وطرح مضامين ثابتة وعادلة في الحوار سوف تتضح الكثير من الحقائق الغائبة - حتى وإن لم يستجب لها في تلك اللحظة، فإن حكمة الحوار ستجعل المتحاورين يراجعون أنفسهم بعد ذلك. وهكذا تتحقق ثمرات الحوار في الدعوة بالتدرج (1).

فالدعوة من خلال الحوار ثمراتها كثيرة، ولعل الأمر الإلهي إلى أنبيائه باتخاذ الحوار طريقاً ومسلكاً مع أقوامهم لتبصيرهم بطريق الحوار إلى سبيل الحق القويم، هو النموذج الذي يجب أن يحتذى في الدعوة لتحقيق ثمراتها الخيرة، ولذلك انفتح هؤلاء الرسل على

الحوار حول ما يطرحونه، وما يفكر به الناس، والرد على شبهاتهم وظنونهم، والخلل في تفكيرهم، فكان الحوار أقوى الثمرات الإيجابية عند من يود أن يتجاوب مع الحق ويتجرد من أنانيته وغروره، وكان هدف الأنبياء -عليهم السلام- في دعوتهم الحوارية مع الإنسان الضال بالكلمة الطيبة الوديدة كيف ينتصر على نفسه، من خلال الانتصار على رواسب الجريمة في داخله.. فيصبرون ليعلموه كيف يكون الصبر في موقع الصراع، الصبر على النوازع الذاتية وعلى التحديات المضادة وعلى الوقوف مع الحقيقة بقوة، وعلى روحية الحوار التي توحى له بالانفتاح الرحب على كل ما في الحياة من قضايا ومشاكل (2).

* **ومن ثمرات الحوار في الدعوة ما نجده من خلال آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى التدبر والتأمل والحوار والجدل بالحسنى، ولذلك حث الإسلام على الحوار والدعوة إليه بكل السبل، والدفع بالمسلمين إلى طرق أبواب المعرفة الحقة بكل وسيلة معقولة ومقبولة، والمتتبع لآيات القرآن الكريم يعرف كيف دعا كتاب الله المؤمنين إلى إتباع سلوك طريق الحسنى في حوارهم، وبيّن لهم حصاد ذلك من أنه يقلب العدو صديقاً والخصم الألد ولياً حميماً. ولهذا حرص القرآن الكريم على أنه يجب على كل من يحاور أو يجادل، أن يكون حواراً دحضاً للباطل وإحقاقاً للحق، حتى يصل المجتمع الإنساني إلى الغاية التي رسمها - سبحانه وتعالى - له.**

ومن خلال تتبع حوار الأنبياء المرسلين: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم -عليهم السلام-، ومواقفهم من أقوامهم في محاوراتهم وتساؤلاتهم، ومقابلتهم كل غلظة وقسوة وجفوة وشدة في الخطاب بكل أدب رفيع، وسلوك كريم، وتوجيه صادق سليم، وتسامح ورحمة. نرى أنها لجديرة أن تحوّل كل عناد إلى انقياد، وأن ترد كل غواية إلى أدب وهداية، لو كانوا يعقلون. تلك من الدروس المستفادة، التي يجب أن ترتفع إليها مستويات الإنسانية اليوم، في المعاملة وفي التفاهم والمخالفة، وفي كل ميادين الحياة الزاخرة (3).

* **كما أن الدعوة بالحوار تثمر للداعية الكثير من الإيجابيات من خلال حوارها مع الآخرين سواءً الموافقون له أو المختلفون معه، ومن هذه الثمرات أن الداعية في دعوتها الحوارية يكتسب قوة وثقة ومعرفة وعلماً ووعياً بالآخر المختلف ونقاط ضعفه، والاستفادة من تجارب الآخر، واستخراج الرؤى الإيجابية منها، ومن هنا فإن الدعوة بالحوار تثمر انطلاقاً إيجابياً للإصلاح والتجديد، فعن طريقه يتحول إلى الاتجاه الصحيح، وبسببه تستجمع الطاقات قواها التنافسية، لمزيد من الاستجابة والتفتح للأفكار والأطروحات القيمة والنافعة (4).**

* **ولا شك أن ثمرات الحوار في مجال الدعوة يصعب حصرها، لكونها واسعة باتساع الدعوة التي انطلقت منذ بدء الخليقة، وقام بها الأنبياء والرسل -عليهم السلام- فهي في الأساس إستراتيجية قامت عليها الرسالات السماوية في جدلها المستمر مع الآخرين، فالحوار كان رمز قوتها من أجل إقناع الآخرين، وبذلك فإن قوة منطقتها كان أساس نجاحها**

في الحوار الدعوي، واستقطاب المؤمنين، فأصبحت خالدة بخلود أفكارها التي رسخت في الأذهان" (5).

* ومن إيجابيات الدعوة بالحوار، وثمراتها الطيبة كذلك أنها تشيع المنظور الديني للإنسان والكون والحياة، حيث إن الداعية في حوارها مع الآخرين يبرز الأفكار ويوضح القضايا التي قد لا تكون مطروحة بشكل أدق وأوضح للكثيرين، كما أنها تثبت الإيمان الحق في القلب من هذا المنظور الحوارية بتبيان قدرة الله سبحانه وتعالى - وعظمته، وتوحيده وقدرته، فالدعوة في هذا الجانب لها الكثير من المآثر والثمرات، ولعلنا نذكر قصة الهجرة إلى الحبشة، وكيف أن الحوار بالدعوة الصادقة أثمر فشل وفد المشركين إلى النجاشي، وكان على رأس وفد المشركين عمرو بن العاص - قبل أن يدخل في الإسلام -، واستعان وفد المشركين على النجاشي برجال حاشيته، بعد أن ساقوا إليهم الهدايا، وقالوا لهم: إن ناسا من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دين الملك النجاشي، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم. وانفقوا أن يشيروا على النجاشي بطردهم.

فلما فوَّتح النجاشي في الأمر، وكان رجلاً عاقلاً سليم التفكير، رأى أن لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعاً. فأرسل إلى المسلمين فحضروا إليه، فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من الناس؟

فقال جعفر بن أبي طالب - وكان هو المتحدث بلسان المسلمين -: "أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش.. فبعث الله إلينا رسولاً نعرف حسبه ونسبه، صدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لوحيدانية الله -تعالى-، وألا نشرك به شيئاً في العبادة، وأمرنا بصدق الحديث، وصلة الرحم، وحسن الجوار، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم... فأمنّا به، وصدقناه، فتعدى علينا قومنا، فعذبونا، فلما قهرونا وظلمونا، جننا إلى بلادك، وخرجوا إلّا نظلم عندك.. وبعد أن استمع النجاشي إلى كلام جعفر، وإلى كلام عمرو بن العاص، ما كان منه إلا أن قال للمسلمين: " اذهبوا فأنتم آمنون، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني آذيت رجلاً منكم. ثم رد هدية قريش إلى عمرو ومن معه وقال لهم: ما أخذ الله الرشوة مني حتى أخذها منكم "

واستطاع المسلمون بقيادة جعفر بن أبي طالب - أن يقنعوا النجاشي بسلامة موقفهم، وأن يجعلوه ينحاز إلى الحق الذي تسلموا به، وأما المشركون بقيادة عمرو بن العاص - فقد باعوا بالفشل، وعادوا إلى مكة يجرون أذيال الخيبة، لأنهم أقاموا حوارهم مع النجاشي على الباطل، وعلى الإشاعات الكاذبة، التي يمجها العقلاء" (6).

ومن الأمثلة الحوارية في الدعوة إلى دين الله والتمثل في الجهاد ضد البغي والعدوان ما حدث في غزوة بدر حين تجمع المسلمون للقاء الكفار وكانت آبار المياه أمامهم، وهنا نهض الحُباب بن المنذر - رضي الله عنه - وسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "أهو منزل أنزلك الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟" فأجاب رسول الله - صلى الله عليه

وسلم-: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة".

فقال الحباب: يا رسول الله ما هذا بمنزل، وأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم- بالوقوف بحيث تكون آبار المياه خلف المسلمين فلا يستطيع المشركون الوصول إليها، وفعلاً أخذ برأيه الرسول صلى الله عليه وسلم- وكان ذلك أحد عوامل النصر في تلك المعركة.

وإذا حاولنا تحليل هذا الموقف -كما يقول د/ محمد المهدي- نجد أن الحباب بن المنذر كان مسلماً إيجابياً على الرغم من أنه أحد عامة المسلمين، وكان أمامه من الأعذار لكي يسكت أو يعطل تفكيره الكثير فهو جندي تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم- الذي يتلقى الوحي من السماء وهناك كبار الصحابة أصحاب الرأي والمشورة، ولكن كل هذه الأسباب لم تمنعه من إعمال فكره، ولم تمنعه من الجهر برأيه الصائب، ولكنه مع ذلك التزم الأدب الرفيع في الجهر بهذا الرأي، فتساءل أولاً إن كان هذا الموقف هو وحي من عند الله أم أنه اجتهاد بشري، فلما عرف أنه اجتهاد بشري وجد ذلك مجالاً لطرح رؤيته الصائبة، ولم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم- غضاضة في الأخذ برأيه واحد من عامة المسلمين، وهذا الموقف يعطينا انطباعاً هاماً عن الجوالات في الجماعة المسلمة آنذاك، ذلك الجوالمليء بالثقة والمحبة والإيجابية وإبداء النصيحة وتقبل النصيحة (7).

*** ومن ثمرات الحوار في الدعوة أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه- صاحب رجلاً ذمياً، فقال له الذمي: أين تريد يا عبد الله؟ قال: أريد الكوفة. فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه عليّ، فقال له الذمي: أليس زعمت تريد الكوفة! قال: بلى، فقال الذمي: فقد تركت الطريق، فقال: قد علمت، فقال له فلم عدلت معي وقد علمت ذلك؟ فقال: هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه وكذلك أمر نبينا، فقال له هكذا؟ قال: نعم، فقال له الذمي لا جرم إنما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أشهدك أني على دينك فرجع الذمي الذي مع علي وقد أسلم (8).**

فالأسلوب الدعوي الحواري يلعب دوراً إيجابياً في مراجعة الشخص لأفكاره وتعامله مع الآخرين حتى إن المراجعة قد تتأخر بعض الوقت، لكن فن الحوار وأسلوبه وطريقته يؤثر كثيراً، لكنه يحتاج إلى صبر وحكمة، ولنا في الأنبياء والمرسلين النموذج والقوة في هذا المضمار.

ومن هذه المنطلقات الإيجابية فإنّ المحاور يجني ثماراً كثيرة منها على سبيل المثال: التمتع بلباقة القدرة على فهم الآخر، والقدرة على تقليب الأمور والأفكار، والقدرة على خلق الاحتمالات التي يمكن أن يقصدها هذا الرأي أوذاك الموقف - والقدرة أيضاً على توجيه الكلام الآخر توجيهاً حسناً... إلخ (9).

ومن ثمرات الحوار في الدعوة أن الداعية يبعد عن التعصب بحكم إدارة الحوار مع

المخالفين، ولذلك تجد الداعية المحاور يفتح كثيراً مع الآخرين من خلال الحوار، والآخر أيضاً يفتح هو الآخر على الرأي المقابل، ويتقبل رأيه وربما يتوافق معه، ولأن الانفتاح الإيجابي على الآخر يقره النظام الكوني والتشريعي والاجتماعي (10).

والحقيقة أن ثمرات الدعوة في الحوار كثيرة - كما أشرنا إلى ذلك - إلا أن الكثير من الجماعات العاملة في الحقل الإسلامي تفتقد كثيراً إلى الحوار الداخلي، وهذا النقص في الحوار جرّ الكثير من المآسي عليها وعلى بلدانها، والشواهد كثيرة ومتوفرة لو أردنا إعطاء أمثلة في هذا المضمار، وهؤلاء للأسف يطالبون أتباعهم كما يقول د/ محمد المهدي - بالطاعة العمياء دون نقاش أو نقد، والاستجابة السلبية " لكل أوامرهم اعتقاداً بأن هذا يحقق مفهوم الجندية في هؤلاء الأتباع، وكم من مأس حدثت بسبب إلغاء الأتباع لعقولهم والاكتفاء بالطاعة العمياء للزعيم أو الأمير.

وليس معنى هذا أن يتحوّل المجتمع المسلم إلى أفراد متناحرين بآرائهم دون اتفاق، وإنما يجب عند مواجهة أي قضية عامة أن يدلى كل صاحب رأي برأيه بأمانة ومسؤولية، ثم تجمع هذه الآراء لدى أهل الحل والعقد فيفندونها ويناقشونها، ثم يتخذ القرار الصحيح بناء على تلك الرؤى المتعددة وحين يتخذ القرار ويبدأ التنفيذ فعلى أفراد المجتمع المسلم أن يتعاونوا جميعاً في تنفيذ ما اتفق عليه حتى ولو كانت آراؤهم الفردية تختلف معه ولا يصح لفرد أن يشق الصف بعد أن يتفق أهل الحل والعقد على رأي معين، وهذه المبادئ غاية في الأهمية للمحافظة على سلامة الصف الإسلامي وتماسكه (11).

وإذا انتقلنا إلى الغرب وتابعتنا انتشار الإسلام في القارة الأوروبية لوجدنا أن الدعوة كانت السبب الأساسي في الانتشار العظيم للإسلام في الغرب ولا يزال، وعلى الرغم من الحملة الشعواء عليه، ووصمه بالإرهاب، والشرّ الكامن فيه، وظلم المرأة و.. الخ، فإن الدعوة بالحوار أثرت دخول الآلاف سنوياً إلى الإسلام بفضل الله، ثم بجهد الدعاة الذين لا يملكون إلا الكلمة الصادقة والمحاورة الأمانة والقوة الحسنة.. وهنا يقول: هنري دي كاستري "إن الإسلام ما دخل بلداً إلا صار ذا المقام الأول بين الديانات، والسبب في ذلك بلا شك الدعوة وقوامها الحوار - وعلى هذا يتحقق أن الإسلام لم ينتشر بالقوة والعنف" بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسالمة المسلمين، ولين جانبهم كان سبباً في سقوط المملكة العربية. ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار الإسلام، حتى بلغ نهر اللوار في فرنسا، ويتساءلون ما الذي كان يصير إليه حال أوروبا؟ لولم يقف (كارلوس مارتل) في وجه المسلمين في سهول (بواتيه) ونحن نرى أن هذا السؤال موضوع وضعاً مقلوباً. والأولى أن يقال: ماذا كان يصير إليه حال أوروبا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين. لأن انكسارهم في "بواتيه" ليس سبباً كبيراً يكفي لأن يعوق الإسلام عن الانتشار (12).

وهذا هو الصحيح لأن انتشار الإسلام بالدعوة في الغرب يفوق التصور، وليس هناك جهودٌ خارقة في هذا الانتشار العظيم للإسلام في الغرب، بل هي أسهل الوسائل وأبسطها..

إنها ثمرات الحوار.. والكلمة الصادقة.. والقوة الحسنة.. (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي هي أحسن) صدق الله العظيم.

2 - ثمرات الحوار في التربية

ثمرات الحوار في التربية في اعتقادي هي أكثر الثمرات رسوخاً وتأصلاً ونجاحاً، باعتبار أن التربية هي الأقوى في مرحلة التأسيس والنشأة، والتربية الحوارية عظيمة وهي الأجدى في ترسيخ مفاهيم الحوار، وقبوله عندما نربي المجتمعات على الحوار واحترام الرأي والرأي الآخر وقبوله عند ظهور علامات الحق بين المتحاورين... الخ.

وإذا استقرينا الكثير من آيات القرآن الكريم والصور المتعددة للحوار: بين الأنبياء وأمهم " أوبين أهل الجنة وأهل النار، بعضهم مع بعض، أوبين أهل الجنة والنار وبين أصحاب الأعراف، وما قام به الرسول - صلى الله عليه وسلم- ما أجراه من حوار، وما حكاه لنا من صور المناجاة بين العبد وربّه عند قراءة القرآن، لخرجنا بمعان متعددة مختلفة للحوار القرآني والنبوي، يصعب احتواؤها بتعريف يجمع كل معانيها، وأشكالها؛ لأنها ليست على نمط واحد، ولكنها من حيث المغزى والمرمى تؤدي أهدافاً مشتركة "(13).

وهي في أصلها تأسيس للحوار والاختلاف بمضامينه العديدة ووفق القضايا المطروحة، لذلك فإنّ هذه الآيات هي التي تربي أسلوب الحوار والرد على المخالفين والحجة والبرهان، وإعطاء الأمثلة المختلفة لدعم الحجة وقبولها من الناحية التربوية لذلك نرى أنّ القرآن يتولى صياغة أسئلة وأجوبة تغني عن جواب المشركين، ليقيم عليهم الحجة بها، وليتم تقرير ما يراد تقريره، مما يلزمهم الإقرار به، بالبرهان والحجة، لزوماً منطقياً ناشئاً عن بدهة المقدمات التي صيغت في أسئلة المرحلة الأولى التي تحكي واقعهم أو تعبر عما هو مشاهد بالحسّ والواقع فلا يمكن إنكاره.

والمثال الآتي خير دليل على ذلك، وهو الحوار القرآني مع المشركين الوارد في قوله تعالى: (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون، فذلّم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون)(سورة يونس: 31-32).

فهذا الحوار يقوم على سؤالهم عما يعترفون به من فضل الله ورزقه.. ذلك أنّ مشركي العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله، ولا أنّه الخالق والرازق والمدبر. إنّما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى، أو يعتقدون أنّ لهم قدرة إلى جانب قدرة الله، فهو يأخذهم بما يعتقدونه، ليصح لهم ذلك الاعتقاد عن طريق هذا الحوار الذي يوقظ وعيهم الفطري "(14).

وقد احترّم الإسلام العقل، واعتبره طاقة عظيمة أودعها الخالق في الإنسان، ولذلك نجد آيات القرآن الكريم تركز على ترسيخ الحجة البرهانية بالحوار ومخاطبة العقل كما في الآيات السابقة، إذ نجده يأخذ في تدريب الطاقة العقلية على طريقة الاستدلال المثمر

والتعرف على الحقيقة، فيتخذ إلى ذلك وسيلتين:

*الوسيلة الأولى هي وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي.

* والوسيلة الثانية هي تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط. والوسيلة الأولى يصل إليها بطائفة من التوجيهات والتدريبات: فهو أولاً يبدأ بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التي لم تقم على يقين، وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن. فينعي على المقلدين الذين يقولون: "إننا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون" ! قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟! "وينعي على الذين يتبعون الظن: " إن يتبعون إلا الظن وما تهوي الأنفس " " إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحقد شيئاً "(15).

كما أن الله سبحانه وتعالى- جادل منكري البعث وحاورهم -من خلال رسله عليهم السلام- ورد عليهم، ولذلك حكمة لا شك في هذا ليعلمنا أسس الاستدلال والرد على الشبهات ودحضها بالحوار، وكأساس تربوي قويم بتحقيق ثمراته الإيجابية وبالأدلة العقلية المفحمة، مبيناً أن الشبهات التي أثاروها لا تستند إلى دليل عقلي، إذ إن العقل لا يحيل إعادة الأجساد مرة أخرى، فمن المعلوم بالبديهية أنه لا يمكن لأحد أن يثبت أو ينفي وجود شيء في مكان أو زمان إلا بأن يطلع أو يخبره مطلع إذا كان وجود هذا الشيء أو عدمه لا يتناقض مع العقل، وليس مستحيلًا في حكمه"(16).

ومن الدلالات الأخرى في الحوار والمحااجة والاستدلال مع الآخر أورد القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تبرز أسلوب الحوار المنطقي والبرهاني لإقناع الكفار والمشركين بأن طريق الحق هو الأقرب إلى الصواب وعبر تحكيم العقل، وهو أيضاً تبيان للمسلمين وتربية لهم بأن الإقناع والحوار هو السبيل الأجدى لتصحيح الأخطاء وتقويم المفاهيم المغلوطة، وهذا بلا شك له نتائج إيجابية وثمرات طيبة للمربين، ولعل إجابة نبي الله إبراهيم -عليه السلام- عندما سأله قومه عن تكسير أصنامهم هي إجابة عقلية منطقية برهانية فقال لهم: "اسألوهم إن كانوا ينطقون" فسيجيئونكم عن سؤالكم، فلما رجعوا إلى أنفسهم واثابوا إلى رشدهم لحظة من الزمان حكموا على أنفسهم بأنهم هم الظالمون في اتخاذ الأصنام عبادة، لكن الشيطان استحوذ عليهم وعادوا مرة أخرى إلى تفكيرهم، وعقلية القطيع"(17).

وإذا ما بذرنا قيم الحوار والتواصل فإننا سنجني ثمار هذا الغرس، بأن ننشئ جيلاً متوازناً وإيجابياً ومتفاعلاً مع مجتمعه ومحيطه وعالمه، إلى جانب أن هذا الغرس سوف يحررهم من الخوف والتردد والتوجس من الآخرين المختلفين عنهم، وينمي فيهم روح الإيجابية والمنافسة والتفاعل والتأمل، والترجيح بين الآراء، وغيرها من الإيجابيات، ولذلك فإن التربية الإسلامية الصحيحة المنفتحة على الحوار هي التي ترفض الظن والتخمين وتطالب بالدليل: (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً، إن

الله عليم بما يفعلون) (سورة يونس: 36)، (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (سورة النمل: 64)، وهي تربية تعرف حدود العقل دون أن تنقص من قدره (ولا تقف ما ليس لك به من علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (سورة الإسراء: 36) (18)

وفي عصرنا الرّاهن ومع مجيء تطبيقات العولمة وآثارها العديدة فإننا أحوج ما نكون إلى الحوار بالتربية للاستعداد لهذه المرحلة الجديدة التي أصبح الاختراق فيها مسألة قسرية وفرضية لا خيار لنا فيها، وهذا بلا شك يجعل من هذه القضية في مقام الضرورة لتنشئة جيل جديد يؤمن بالحوار مع الآخر ويبصر إيجابيات الانفتاح من سلبياته حتى يستطيع على الأقل أن يتفاعل مع القيم الصالحة، ويحتاط للقيم المنحرفة أو السلبية، التي ستدخل علينا اقتحاما وليس اختياراً، ونحن لا نتحدث عن توقع أو خيال وإنما نتحدث عن واقع وحقائق قائمة حيث تستباح مجالات الفضاء بصورة نهائية، وسيطر الأقوى تكنولوجياً على فكر العالم وعقله، فتسهل عليه في كافة الشؤون الأخرى في الوقت الذي يصبح فيه العالم النامي عديم الحيلة أمام تلك القوى التي تمتلك الوسائل وأساليب الدعايات العديدة.

وسوف تضطر هذه الدول إلى فتح أبوابها على مصراعيها أمام هذا التطور المفروض بمنظمة التجارة العالمية "الجات" تحت مسميات دعم التفاهم بين الشعوب وتقديم الثقافة والفكر لبلورة حوار الحضارات والتواصل الإعلامي الجديد وتعميم التكنولوجيا والمعلوماتية "الإنترنت" عبر الفضاء.

فلا مفر من التعامل مع هذا الواقع الفضائي وهذا الاختراق الثقافي الجديد بكل إمكاناته الرهيبة.

فالهروب والعزلة أو الاعتزال عن المواجهة معناه أننا سنخسر مواقع جديدة وأرضية يمكن كسبها فيما لوقبلنا التحدي بشجاعة المواجهة وبجدية المصارحة في تناول قضاياها ومشكلاتنا عبر وسائل التقنية الفضائية (19).

والشيء الغريب أنّ مبادئ التربية الدولية التي صدرت في توصيات اليونسكو في نوفمبر 1974م تدعو إلى عكس ما تطرحه العولمة، والتي هي في الأساس نتاج للفكر الغربي وتطلعاته للسيطرة وربما القضاء على التعددية، وعدم التسامح مع الهويات والثقافات الأخرى. ومن التوصيات في هذا الصدد:

أ - إضفاء بعد دولي وإطار عالمي على التربية في جميع مراحلها وبكافة أشكالها.

ب - السعي إلى فهم واحترام جميع الشعوب وثقافتهم وحضاراتهم وقيمهم وأساليب حياتهم، بما في ذلك ثقافات الإثنيات المحلية وثقافات الأمم المتحدة.

ج - الوعي بتزايد التكافل بين الشعوب والأمم على الصعيد العالمي.

د - تنمية القدرة على الاتصال بالآخرين والحوار معهم.

هـ - عدم اقتصار الوعي على الحقوق وحدها بل شموله واجبات الأفراد والفئات الاجتماعية والأمم كل منها إزاء الأخرى.

وفهم ضرورة التضامن والتعاون الدوليين.

ز - تنمية استعداد الفرد للإسهام في حل مشكلات مجتمعه المحلي ووطنه والعالم أجمع (20).

* ومن ثمرات الحوار في التربية أنها تصنع الإيجابية وحسن التعامل مع الآخرين، وتبعد التفكير السلبي.. وقد طلب منا سبحانه- عند الحديث مع الآخر المختلف أن نحاوره (بالتي هي أحسن) وهي تربية إلهية عظيمة، وفي آية أخرى (ادفع بالتّي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم). هذه الآية الكريمة دعوة للإيجابية، فالله سبحانه وتعالى يقول لك: كن إيجابياً في الطريقة التي تتصرف بها وتتعامل فيها مع الآخرين. كن إيجابياً في مشاعرك تجاه الآخرين، وفي الحديث معهم وفي مواقفك تجاههم، كن إيجابياً لدرجة أن الذي بينك وبينه عداوة ليس فقط مثل الصديق، بل يصبح مثل الصديق الحميم جداً، والقريب من النفس. لكن من يمكنه الوصول إلى هذه الدرجة العالية والمستوى الرفيع من التعامل والأخلاق؟ إنه الذي يصبر ويحتسب، ويفتح عقله وقلبه للآخرين. ومثل هذا الإنسان رزقه الله سبحانه وتعالى- حظاً عظيماً على أخلاقه العالية وصبره واحتسابه. ويقدم لنا رسولنا -صلى الله عليه وسلم- قدوة رائعة في التفكير الإيجابي والنظرة الإيجابية إلى الأمور (21).

* كذلك تأتي ثمرات الحوار في التربية من خلال غرس الثقة في الشخص لمناقشة الآخرين ومحاورتهم، وعدم الهروب من المواجهة والجدل، لأنها لا تصنع أجيالاً قادرة على التفكير السليم والمنطقي، ذلك أن " الإنسان الفاقد للثقة بنفسه لا يتمكن من التفكير، أوروبما لا يفكر، وان كان قادراً عليه، ثم لا يجزم بنتيجة تفكيره، إذ سيقول أبداً، أنا أقل قدراً من معرفة الحقيقة وهكذا يخطئ فكره وان كان صواباً، لأنه لا يعترف بإمكانية توصل هذا الفكر إلى حقيقة، والحقيقة أن فقدان الثقة يعني فقدان الذات في مقابل وجدان الذات والتي هي تعبير عن الوعي الذي هو بدوره شرط للمعرفة، والشجاعة أمام أفكار الآخرين، فيتعامل معها وفق المقاييس السليمة، لا تهور في الرفض، ولا رهبة أو خضوع، وإنما حالة اعتدال يتم على أثرها الموقف السليم " (22).

* ومن هذه الإيجابية أيضاً في الحوار تربوياً الموقف السليم من أفكار الآخرين ومعتقداتهم من حيث الاستعداد النفسي لقبولها ومناقشتها والقبول بمبدأ الحوار، وحرية طرح الأفكار، والتدليل على صوابها، وإقامة البراهين على صحتها، ونقض ما ينافيها، بروح رياضية، وأخلاق عالية ضمن قاعدة (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ولا ننسى في هذا

السياق أنّ القرآن الكريم عرض الحوار حتى مع المشركين والكافرين كما في آيات كثيرة ليحقق الإسلام بذلك المعجزة الكبرى في إعطاء الحرية للآخرين في اختبار أفكارهم وعقائدهم.. "(23).

وإذا رجعنا إلى مدرسة النبوة فس نجد فيها الكثير من الثمرات العظيمة للحوار وإيجابياته. ومن هذه المآثر العظيمة للتربية الصالحة للحوار عدم الإساءة إلى المحاور أو غيره ولو أخطأ، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- "إذا أراد أن ينبه إلى خطأ ولم يشأ التصريح قال: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا"، ونجد ذلك تحت عنوان "باب من لم يواجه الناس بالعتاب" من كتاب الأدب للبخاري -رحمه الله-: " صنع النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئاً فرخص فيه؛ فتنزهه عنه قوم فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخطب، فحمد الله، ثم قال: ما بال أقوام ينتزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية"، ولذلك يجب أن تستمع إلى المحاور ولو أنك تراه مخطئاً وتجيئه في لباقة " إنني أرى رأياً آخر قد أكون مخطئاً فيه فلنختبره معاً " وأقل شيء تجنيه من هذه اللباقة أن تبث في محدثك روح العدل والإنصاف، فيحاول أن يتخذ الموقف نفسه الذي اتخذته، ويسلم بأنه هو الآخر قد يكون مخطئاً "(24).

*** كذلك نجد ثمرات الحوار في التربية تكسب المرء التعبير عن رأيه دون خجل أو خوف، وهذا يتم اكتسابه بالتربية والتعامل المتدرج وبناء الثقة -التي أشرنا إليها آنفاً- وفي السنة النبوية مواقف عديدة لهذا النوع من التربية الطيبة وثمراتها القيمة في النشء، منها قصة الطفل الذي لم يتجاوز عمره العاشرة الذي كان على يمين النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان على شماله كبار الصحابة، " ومن المعروف أنّ السنة المطهرة تقتضي أن يشرب من هو على اليمين أولاً فنظر إليه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقال له: " هل تأذن لي أن أعطي من هو أسن منك أولاً (أي من هو أكبر منك سنًا)، فقال الصغير بحزم وعزم: لا يا رسول الله، والله لا أرضى أن يشرب بعدك أحد قبلي !!**

فتبسم النبي وأعطاه الإناء ليشرب منه قبل كبار أصحابه، فإيا له من تعليم حكيم يعلمنا إياه الرسول -عليه الصلاة والسلام-، حين يجعل من حق الطفل أن يعبر عن رأيه، وأن يقول ما يعتقد أنه الصواب والحق، كذلك فإن هذا الموقف يعلمنا أن احترام رأي الطفل هو المنهج الصحيح لتخريج الرجال، إذ لا يمكن أن يصبح رجلاً ناضجاً من يحرم من التعبير عن رأيه، ومن يفقد إلى التقدير والاحترام "(25).

*** كما أن من ثمرات الحوار التربوي أنه يكسب صاحبه العقلية الناضجة في الحوار والتفكير العقلي المرتب، ذلك أن العقل نعمة من أجل النعم " التي أنعم الله -جل وعلا- بها على الناس. وهو وسيلتنا الأساسية في استثمار المعلوم من أجل الوصول إلى مجهول في عمليات نسميها (التفكير) إن كفاءة عقولنا بوصفها مبادئ وإمكانات فطرية، وبوصفها مكتسبات ثقافية وخبرات حياتية - تظل مرتبطة بمدى ملائمة تجهيز اتنا العقلية والثقافية**

للقضايا والموضوعات التي نريد اجتراعها والإمساك بها. وقد اتنا الذهنية مهما كانت فذة ومتفوقة فإنها في النهاية محدودة. وبسبب هذه المحدودية تظل هناك فجوة ما بين وضعنا الإدراكي وبين طلاقة الإرادة والطموح والتطلع، مما يجعلنا نشعر دائماً بالعجز والارتباك الذهني حيال القبض على الواقع. إننا لا ندرك سوى القليل من الأحداث الجارية والفرص السانحة والعقبات المعترضة. ولذا فإننا حين نفكر نشعر بأن ما لدينا من معطيات ليس كافياً لإصدار أحكام قاطعة، ونظل نشعر أننا نقف على أرض غير صلبة، صاحب العقلية الناضجة يدرك هذه المعاني. وهذا الإدراك يملي عليه ضرورة الاحتياط في إطلاق الأحكام والتعميمات "(26)".

كذلك فالمدرسة الإسلامية الأولى أرست مفاهيم عظيمة للحوار الإيجابي والتأويل المنطقي البعيد عن الأهواء والنظرة الضيقة، فالحوار في وقتهم كان العامل الرئيسي في الفهم والإدراك والعمق لقضايا النص ومحتواه ومفاهيمه القطعية والفرعية بخلاف عصرنا الحاضر للأسف، حيث إن الاختلاف الفرعي يقم أحياناً وكأنه قطعي، أو من ضمن الأصول التي لا تقبل الاختلاف أو التأويل، ومن هذه المدرسة نخرج عمالقة فقه الحديث والسير والتاريخ... الخ.

ولذلك كان الاختلاف بينهم - كما يقول أحمد البراء الأميري - في فهم النصوص أمراً طبيعياً " اقتضته حكمة الله. وشتان بين من يقول: إن هذه الآية تتأويلها - خطأ، وإن هذا الحديث بعيد عن الصواب، وبين من يقول: إن فهم فلان لهذه الآية أو ذاك الحديث خطأ، وأنا أرى رأياً آخر، أو أرحح فهماً آخر.

وهؤلاء هم الصحابة الكرام، معدن اللغة العربية، وفهمهم حجة فيها - اختلفوا في فهم كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو سيد الفصحاء والبلغاء.

روى البخاري ومسلم - رحمهما الله - في صحيحيهما، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما رجع من الأحزاب قال: " لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة "، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم، لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد ذلك منا، فذكر للنبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يعنف أحداً منهم وأقرهم على فعلهم.

"فالنص - إذن - شيء وتفسير النص أوفهمه شيء آخر. إن الاختلاف في وجهات النظر - بدل أن يكون ظاهرة صحية تغني العقل المسلم بخصوصية في الرأي، والاطلاع على عدد من وجهات النظر، ورؤية الأمور من أبعادها وزواياها كلها، وإضافة عقول إلى عقل - انقلب عند مسلمي عصر التخلف إلى وسيلة للتآكل الداخلي، والإنهاك، وفرصة للاقتتال، حتى كاد الأمر يصل ببعض المختلفين إلى حد التصفية الجسدية، وإلى الاستنصار

والتقوي بأعداء الدين على صاحب الرأي المخالف" (27).

فقد انتهجت نهج الانفتاح على مضادات الآراء بما أتاحتها من حرية القول والاحتجاج

والنقد، وقد اتخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- شعاراً له هو " أشيروا علي أيها الناس وهو شعار تربوي يهدف إلى تربية المسلمين على الفكر النقدي المقارن بإتاحة الحرية الواسعة في القول والحجة، وإلا فإن الحق بائن لديه إذ هو المؤيد بالوحي المعصوم من الخطأ" (28).

وهذا ما تؤيده كل القرائن الدالة على نتائج ثمرات الحوار في التربية في أنها توجد المناخ الحر، والرأي النقدي، والموضوعية في التعامل والحوار، والإيجابية في التناول وغيرها من المعطيات والرؤى المختلفة.

3- ثمرات الحوار في الثقافة

الثقافة هي الوعاء الذي تصب فيه كل التجارب والخبرات وطرائق العيش، والمخزون الفكري والعطاء الإبداعي... إلخ، ولذلك فإن الثقافة من أبرز مكونات حركة الحياة في المجتمعات الإنسانية بوصفها الذخيرة المشتركة لأي أمة من الأمم تنتقل بها من جيل إلى جيل عبر تاريخ طويل من الأفكار والعادات والسلوكيات والمعتقدات وغيرها من المعطيات في هذا المضمار (29).

لذلك فإن ثمرات الحوار في الثقافة كبيرة وهامة بقدر ما للثقافة من أدوار وتأثيرات في كل الأنساق الفكرية والسلوكية في المجتمعات عبر العصور، لكن الذي يكسب الحوار الثقافي إيجابياته وبعده الإنساني القويم هو التعدد الثقافي والقبول به. فالتعدد في الثقافات البشرية عبارة عن تعدد في مسارات مختلفة " يسلكها بمجرد سعيه لسبر أغوار العالم، ومحاولة التعرف على حقيقته. إن هذه الحركة تشبه حركة الماء المراق على الأرض عندما يأخذ بالانتشار بكل الاتجاهات الممكنة ما لم يمنعه مانع؛ فالفكر يتحرك في الفضاءات التي تواجهه ما لم تحد من حركته موانع، كما أنه قابل لأن يتوجه وجهة خاطئة إذا ما تم فرض هذا التوجه عليه، وإذا وضعنا في اعتبارنا علاقة هذا الفكر بحركة الواقع، وكونه القوة التي تجر الحياة البشرية وراءها بأي اتجاه سارت، عرفنا خطورة وأهمية عملية تشكيل الأفكار وخطورة الأغلاط التي يقترفها الوعي وهو يحدد علاقته بموضوعاته." (30).

من هنا تبرز ثقافة التفاعل والتنوع كنتيجة للحوار في مقتضياته العديدة، وكثيرة للقبول بالآخر ومحاورته بهدف توطيد جسور التواصل، وفي غياب الحوار الثقافي نفتقد بالتالي إيجابياته وثمراته الكبرى، وتثمر في مقابله ثقافة الاستبداد بحديث يقود المجتمع إلى حالة سلبية من عدم التوازن وعدم الترابط، وبالتالي وضع المجتمع في إطارين؛ إما التصادم بين الأفكار والاتجاهات المتعارضة والوصول للصدام المادي، أو اضمحلال الكل في فكر واحد واتجاه تسلطي منفرد؛ مما يعني انقراض الإبداع، وموت التنوع، وإقصاء الاجتهاد، والتوقف التام عن الحركة الحيوية المستمرة.

أيضاً فإن الاستبداد (يتناقض) مع الحوار، فمع وجوده (يترجع) الحوار؛ لأنه يمثل اعترافاً بالآخر، ومن ثم إذعانا للتعددية والتنوع، وهذا أمر ترفضه الدكتاتورية، وفي الوقت نفسه فإن قطع الطريق أمام الحوار يقود تدريجياً إلى تسلط الرأي المنفرد، وإقصاء الرأي الآخر (31).

فالحوار الثقافي يثمر أيضاً ثقافة الانفتاح المحضة ضد الاختراق، ذلك أن الانغلاق - كما يقول د/ محمد عابد الجابري - موقف سلبي غير فاعل. والطريقة الإيجابية للتحسين الذاتي أن يكون الحوار الداخلي قائماً ومترابطاً من هنا فإنه سيكون متماسكاً حتى في حالة عدم التكافؤ في القدرات والإمكانات المختلفة بيننا وبين الآخر، مع وجوب إرساء ديمقراطية يتم بها "وفي إطارها تحرير الثقافة من السياسة، وذلك برفع جميع القيود عن حرية التعبير التي من دونها لا تفكير ولا حوار ولا إبداع. إن الاستقلال الثقافي يبدأ من استقلال الفكر، وليس هناك من بديل للفكر المستقل غير التبعية للغير أو الجمود على التقليد. والحوار الذي توفره الديمقراطية الحققة في إطار تكافؤ الفرص وضمن الإستراتيجية الثقافية.. هو وحده القادر على أن يحفز عملية "التجديد من الداخل"، عملية تبيئة الحداثة وجميع مكتسبات الفكر الإنساني المعاصر بالصورة التي تجعل من الاتصال والتواصل مع الثقافات الأخرى عصر إغناء وإخصاب، لا عامل استلاب واستسلام (32).

ومن ضمن ما قام به الإسلام عند انطلاقته العظيمة أنه اتخذ الحوار طريقاً إلى الإنسانية، فثمر هذه الحضارة العملاقة التي تفاعلت مع كل الحضارات في ذلك العصر "بوتيرة لا سابق لها في تاريخ البشر. فتوسعه في آسيا كما في أفريقيا وأوروبا قد أتاح له أن يكون بوتقة عملاقة انصهرت فيها ثقافات عدة. وهكذا نشأت حضارة أصيلة عالمية الطابع، متخذة العربية لغة مشتركة. وقد شكّلت مرحلة حاسمة في التاريخ الإنساني. فقد قدمت الحضارة الإسلامية أسماء لامعة يعتد بها على المستوى العالمي في ميادين المعرفة كافة: الأدب، علم اللغة، المعاجم، التشريع، اللاهوت، التصوف، التاريخ، الجغرافيا، رواية الرحلات واكتشاف البلدان القصية، الملاحة، الرياضيات، الفلك، الموسيقى، الفلسفة، الطب، الكيمياء، النبات، الفن والعمارة. إنه التراث الثقافي الكلاسيكي الذي يستمر درسه واستكشافه" (33).

* وأيضاً من ثمرات الحوار في الثقافة أن هذا الحوار يسهم في التعايش مع ثقافة الآخر وفكره ورؤاه من منطلق القبول بالتعدد الثقافي والإقرار بها، وهذا في حد ذاته غنى للثقافة نفسها، وقوة لعناصرها الذاتية، يضاف إلى ذلك أن نظرتنا للقبول بالآخر والتعايش معه تعد جزءاً لا يتجزأ من ثقافتنا وحضارتنا وديننا الحنيف، لذلك فإن من المهم تعميم ثقافة القبول بالآخر والتعايش معه والدفاع عن حقه في التعبير ما دام يلتزم القوانين والأنظمة المرعية، وهذا ما يدفعه أيضاً للقبول بالحوار الثقافي والتعايش معه (34).

* كما أن من ثمار الحوار في الثقافة أنه ينمي التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب

من خلال هذا التفاعل، ومع أن لكل أمة سلمها الحضاري، وحيزها في هذا السلم ودرجته إلا أن هذا التفاعل يتنامى مع الحوار الثقافي، ويترك أثره وتأثيره بالتراكم الثقافي، ويكون أقدر على الثبات والتأصيل، والأقدر أيضاً على الحوار الثقافي والحضاري مع الحضارات والثقافات الأخرى بحكم تفاعلها الثقافي معهما (35).

*** والحوار الثقافي تتجلى ثمراته وإيجابياته أيضاً في منظومات القيم التي هي أحد مفاهيم الثقافة الجمعية لأية أمة من الأمم بوصفها النتاج الثقافي والاجتماعي لها، حيث يتفق عليها المجتمع من خلال تشريعات وقوانين ولوائح فأصبحت تشكل جزءاً لا يتجزأ من كياناتها الشخصي والاجتماعي، وأصبحت أنماط سلوك متعارفاً عليها، لا يجوز خرقها بأي شكل من الأشكال، والذي يحاول من الأفراد التمرد عليها يتهم (بالانحراف). وقد تكون قيماً مرحلية تنعدم خواصها بمجرد انقضاء المرحلة الزمنية التي تواجدها فيها تلك المفاهيم.**

من هنا فإن القيمة تدخل في صميم التكوين الثقافي الجمعي والفردي على حد سواء، لأن الثقافة المميزة لأية مجموعة توضع على شكل مفاهيم وقيم وأنماط سلوك، ومنظومات معرفية تحققت لدى أنساق متتالية من الجماعات البشرية عبر مراحل متعددة (36).

*** ومن ثمرات الحوار أيضاً في الثقافة أن هذا الحوار يسهم إسهاماً إيجابياً في الانفتاح السياسي، أو على الأقل الاقتراب من الديمقراطية المختلفة، وهذه الديمقراطية بغض النظر عن المسميات والمصطلحات- تقترب كثيراً من مفهوم الشورى في الإسلام من حيث التعدد في الآراء، والاختيار الحر النزوي للأشخاص الذين يتصدون للعمل العام، وكذلك القبول بنتائج الانتخابات... إلخ: حتى إن الشيخ أبا الأعلى المودودي " وهو أكثر العلماء المعاصرين انتقاداً لبعض النظريات الغربية بما فيها الديمقراطية، قد قال في كتابه " مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة ": " كان الصحابة أكثر حبا للديمقراطية وأشد الناس تمسكاً بالحرية الفكرية، ولم يكن الخلفاء يكتفون باحتمال نتائج الحرية الفكرية من قبل الناس، بل كانوا يستثيرون همهم. ولم يدع أحد من الصحابة أنه لا يخطئ. وأبو بكر هو القائل: " هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله. وعمر هو القائل: " لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة " (37).**

وفي وجود ثقافة الحوار ومعطياته وتحدياته الاجتماعية والفكرية فإن الإبداع الحقيقي في الثقافة ينمو ويزدهر ويثمر جرّاء ذلك نتاجاً أصيلاً، ذلك أن النواة الحقيقية للإبداع هي التفاعل " الخلاق بين المثقف وواقعه. وهذه العلاقة تنتج معالجات وإبداعات تتسج واللحظة التاريخية. فتفاعل المثقف مع الواقع لا يعني الخضوع إلى معوقاته أو الدخول في نفق تلك المقولة السلبية " ليس في الإمكان أبدع مما كان " فالتفاعل الذي نعنيه هو التهيئة اللازمة للشروط النفسية والعقلية، لجعل الأديب أو المثقف يستوحيان من الواقع الأعمال الأدبية والثقافية، كما أن الأرض الخصبة التي تؤهل الأديب أو الفنان لعمليات الإنتاج الأدبي

أو الثقافي المبدع، هي التي تشكل الرهان الإبداعي المبتغى في عملية البناء الثقافي، ولكي يكون المنجز عملية واعية في أفقها الصحي والانفتاحي للرؤى والقضايا الوطنية والقومية، وفي مسارها المنسجم مع راهنها بظروفها الإيجابية والسلبية بعيداً عن الأطياف الخادعة والمقولات الواهمة" (38).

من هنا فإن ثمرات الحوار أيضاً أكسبت الصحابة في العصر الأول الإسلامي ممارسة الحرية في الاجتهاد وطرح الأفكار والآراء المتعلقة بالشؤون العامة، وهي ممارسة أقرها الإسلام ودعا إليها، فكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتحاورون ويتناقشون مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في قضايا عديدة منها ما يتعلق بالاجتهادات الدنيوية وشؤون الحرب " حتى النساء، كما في قصة خولة بنت ثعلبة في شأن حكم الظهر، وقصة الحباب بن المنذر بشأن موضع النزول في معركة بدر الكبرى، في موقع قريب من الماء، ومنع المشركين الوثنيين من الاستفادة من هذا الموقع الاستراتيجي، وهناك أمثلة كثيرة مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان تشاور الصحابة في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثلاً أعلى للحرية في النقاش والحوار واختيار الأصلح، وإتمام البيعة لأبي بكر رضي الله عنه -، الذي توج هذه البيعة بخطابه السياسي الرائع حيث قال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

" أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني..".

وسار الخلفاء الراشدون من بعده على هذا المنهج، فهذا عمر يقول: "فاتقوا الله عباد الله! وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم" (39).

لذلك يجب الاتفاق على ترسيخ فكرة النقد في المجتمع، وأن لا عصمة للأفكار التي تطرح من الأشخاص - أي كانوا - عدا ما اتفقت عليه الأمة بعصمته في دستورها وقوانينها المرعية - كالرسالات السماوية والأنبياء، ولذلك فإن غياب النقد معناه أننا نسير إلى الخلف، ومن ثم فإن تصحيح الأخطاء لن يتم في ظل غياب النقد، ومستلزماته التقويمية، وهذه إشكالية ثقافية وفكرية خطيرة مع الوقت، وما أصاب الأمة في عصرنا الراهن من نكسات وتراجعات وانتكاسات كان بسبب غياب النقد، والشورى والديمقراطية والحرية... الخ:

ومن هنا تأتي ضرورة النقد وتفعيله في المجتمع، وهذه مسؤولية تقع على الأمة كلها لأجل تحقيق " الذات والوصول بها إلى الكمال المطلوب، وتعمق المسؤولية بالنسبة للجيل الواعي من مثقفي الأمة وكتّابها الفاعلين في الوسط الاجتماعي، من أجل إخراج المجتمع من دوامة المشاكل، وإنفاق العزلة الفكرية المقتصرة على البعد أو الاتجاه الواحد

ولتحقيق ذلك نحتاج إلى شجاعة من نوع خاص في ممارسة النقد البناء، لفهمنا للمفاهيم الإسلامية المرتبطة بالعمل الاجتماعي ومدى اقترابها وملاصقتها للفهم الواقعي خصوصاً في ظل الظروف الراهنة التي يمر بها عالمنا الإسلامي - الغزو الثقافي المعولم وعلاقات التطبيع المختلف مع العدو الصهيوني - وهذا يلفت أنظارنا إلى ضرورة تفكير جميع القوى والفاعليات المنتشرة على الساحة الإسلامية العريضة، لأجل القيام بعملية شحذ الهمم واستنفار الجهود والقيام بعملية مسح شاملة للأفكار وبعض المسلمات والمواقف من الآخر ونظرتنا للواقع، من حيث الطوباوية والواقعية وفهمنا للموروث الثقافي والنصوص الدينية المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية ومع الفرقاء والمنافسين (40).

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن الحوار الثقافي في كل المجتمعات يلعب دوراً إيجابياً في التغلب على العنف والتطرف والتعصب، لأنه يسهم في إلغاء الاحتقان داخل المجتمعات، ويعمل على انسيابية الحوار وهو بذلك يفتح الانسداد المغلق على الفكر الأحادي عند بعضنا تجاه الأفكار التي تقبل النقاش والحوار، ومن ثم تتفتح آفاق التعدد والتنوع والتسامح. وبهذه الخطوات تأتي ثمرات هذا التوجه، ولنضرب أمثلة على ذلك ما جرى في مصر منذ فترة وجيزة، عندما جرت حوارات ومراجعات لبعض التنظيمات السياسية الدينية حيث أعلنوا عن خطأ منهجهم الفكري في العنف وتغيير المنكر بالقوة، وهذا لم يتم إلا بالحوار بينهم وبين بعض العلماء، وبين بعضهم بعضاً، فالحوار بشكل عام، والحوار الثقافي بشكل خاص يسهم إسهاماً إيجابياً في مراجعة المرء لفكره ومنهجه، لكن حين تقمع الآراء، وتمارس القوة التعسفية لتغيير الأفكار وإقصائها، فالرد الطبيعي على ذلك أن "حالات العنف والتعصب تنمو في المجتمع، حيث يدخل الجميع في دوامة العنف والتعصب، بحيث تشمل جميع دوائر السياسة والثقافة والاجتماع.. (حين يتعثر مولد الرأي لا يبقى إلا الاعتراض، والاعتراض بدوره محكوم عليه منذ البداية أن يكون صراعاً حدياً، ولا سبيل أمامه إلا أن يغتصب ذات أدوات الصراع المباشرة التي تمتلكها السلطة، وبذلك لا تكون سياسة في ظل الحراب، حراب الدولة وحراب المعترضين. فليس غريباً إذن أن تتعسكر السياسة العربية منذ نشأتها الأولى، عند كلا قطبيها: الحاكم والمحكوم، في معظم الأقطار المشرقية التي سبقت إلى دخول عصر الاستقلال الوطني، وواجهت مبكرة في آن واحد إستراتيجية التنمية السريعة في بناها الاقتصادية والاجتماعية وإستراتيجية الاختراق من قبل الاستعمار الجديد" (41).

وعندما يغلق باب الحوار مع بعض أفراد المجتمع الذين يحملون أفكاراً متطرفة أو مخالفة للنهج الإسلامي الصحيح في بعض القضايا، فإن أفضل مواجهة أن تتم محاورتهم ومناقشة أفكارهم، لذلك فإن أروع دعوة في هذا المضمار ما طرحه المفكر الإسلامي د/ أحمد كمال أبوالمجد عندما قال بصوت عال في حديث عن العنف والغلو: "كفوا عن استخدام "عصا الأمن" في مواجهة الأفكار ما دام أصحابها لا يتجاوزون دائرة التعبير الهادئ والدعوة بالكلمة المقروءة والمسموعة، واذكروا أن " الغلو " الذي ندينه

جميعاً ظاهرة مركبة لها أبعادها الاجتماعية والاقتصادية، وأنه لا يصلح في علاجها أسلوب " العنف " والملاحقة بالأذى، وراجعوا سجلاتكم وسجلات الحكومات في كل مكان، وسوف تجدون أن العنف لم يولد إلا عنفاً، وأن تجاوز الحدود في ملاحقة أصحاب الفكر أياً كان صواب هذا الفكر أو خطؤه لا يزيدهم إلا إصراراً، ولا يزيد دعواتهم إلا انتشاراً. "(42).

الحوار الثقافي ثمرة عظيمة في حياة المجتمعات وأثره يمتد إلى كل مجالات الحياة، بحكم ما تمثله الثقافة من تأثير وامتداد لكل مناحي النشاط الإنساني، المهم أن تصدق النيات، وتتبلور المواقف، وتلتقي الأفكار والأطروحات حول الهدف الأسمى للخير والرقي والتقدم.. وهو في النهاية ضرورة إنسانية، يجب انتهاجها وقبولها كصيغة إيجابية لكل المشكلات والتوترات والانسدادات السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية. والحمد لله في المبدأ والمنتهى.

الهوامش

* (كاتب وباحث عماني)

- (1) د/محمد سيد طنطاوي - أدب الحوار في الإسلام نهضة مصر - القاهرة - ط1 - 1999م ص.13
- (2) محمد حسين فضل الله- الحوار في القرآن - دار الملاك - بيروت- ط6 - 2001 ص.7
- (3) أصول الجدل - جمعية الدعوة الإسلامية العالمية - طرابلس - ليبيا ط2 - 2001 ص.37
- (4) آفاق الإصلاح والتجديد - الحوار طريقاً - مرجع سابق - ص13.
- (5) المرجع السابق - ص14.
- (6) أدب الحوار في الإسلام - مرجع سابق - ص51-52.
- (7) أ. د/ محمد المهدي - الحوار ودوره في الحد من العنف - موقع www.wtc.com ص.4
- (8) مرتضى معاش - التواصل مع الآخر تأصيل لمنهجية التعايش - مجلة النبأ - عدد (47) ص1-2001.
- (9) ضوابط النقد البناء - مصطفى السادة - مجلة النبأ - العدد (52) - 2000 - ص10.

- (10) نحن والآخر.. الانفتاح أو التعصب - مصطفى السادة- مجلة النبأ- العدد [48] 2000 ص11.
- (11) د/ محمد المهدي - الحوار الإيجابي ودوره في الحد من العنف - بحث علي الإنترنت، www.wtc.com ص5.
- (12) آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب - أنور الجندي - مؤسسة الرسالة - ط1 - 1984 - ص14.
- (13) عبد الرحمن النحلاوي - التربية بالحوار - دار الفكر - دمشق - ط 2002 - ص14.
- (14) المرجع السابق - ص 17 , 18.
- (15) محمد قطب - مناهج التربية الإسلامية - ج1 دار الشروق - القاهرة - ط 12 1989 - ص 77، 78.
- (16) د/ عبد الكريم عبيدات - الدلالة العقلية في القرآن الكريم - دار النفائس - الأردن ط 1 - 2000 - ص423.
- (17) خالد عبد الرحمن العك - الفرقان والقرآن.. قراءة إسلامية معاصرة - الحكمة للطباعة والنشر - دمشق - ط 1 1994 ص 190.
- (18) د/ يوسف عبد المعطي - تربية المسلم في مواجهة تحديات عالم معاصر - منشورات المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة - ايسيكو - ط 1 1995 ص 17.
- (19) عبد الله علي العليان - في النهوض العماني الحديث وقضايا الواقع العربي والعولمة في النظام الدولي - مؤسسة عمان للصحافة والأنباء والنشر والإعلان - ط 1 - 2001 ص 167.
- (20) د/ أحمد عبد الله العلي - دار الكتاب الحديث - القاهرة - ط 2002 ص 68 , 69.
- (21) د/ إبراهيم القعيد - فكر بإيجابية.. نصف الكأس - مجلة المعرفة - الرياض- العدد [64] أكتوبر 2000 ص 82.
- (22) محمد العليوات - المجتمع والتحدي الثقافي - دار الصفوة - بيروت - ط 1 - 1993 - ص 172.
- (23) المرجع السابق ص 169.

- (24) محمد ديماس - فنون الحوار والإقناع - دار ابن حزم - بيروت ط 1 - 1999 - سلسلة الحوار والتفاوض والاتفاق (2) ص 128.
- (25) مريم عبد الله النعيمي - الالتفات إلى الذات - سلسلة التميز التربوي (5) - إصدار مركز التفكير الإبداعي (83) دار ابن حزم - بيروت ط 1 - 2002 - ص 105، 106.
- (26) عبد الكريم بكار - لماذا لا - تحب التفكير - مجلة المعرفة - الرياض العدد [83] مايو 2002 ص 34.
- (27) أحمد البراء الأميري - أخطاء التفكير - مجلة المعرفة - مرجع العدد السابق ص 46.
- (28) د/ عبد المجيد النجار - دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين - المعهد العالي للفكر الإسلامي - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية ط 1 1992 ص 61.
- (29) عبد الله الفريجي - النهوض الثقافي.. رؤية إسلامية - مقال للكاتب على الإنترنت - www.dar.islame.com ص 1.
- (30) عبد الله الفريجي الأفكار المسبقة وأسس بناء الوعي - العدد (64) - 2001 ص 4.
- (31) آفاق الإصلاح والتجديد.. الحوار طريقاً - مرجع سابق ص 9.
- (32) المسألة الثقافية - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ط 1 1994 ص 235.
- (33) محمد الطالبي - الإسلام حرية وحوار - فصل حوار بين العوالم الثقافية للهوية رسالة الثقافة العالمية - دار النهار للنشر - بيروت ط 1 - 1999 ص 211.
- (34) نحن والآخرون / غريغوار منصور مرشوسيد محمد الحسيني دار الفكر - دمشق ط 1 - 2001 ص 110.
- (35) الخطاب الثقافي والمشهد السياسي في مواجهة الغزو الصهيوني - دار الكتاب العربي - دمشق ط 1 1988 ص 122.
- (36) المرجع السابق ص 264.
- (37) عبد الله علي العليان - الديمقراطية لا تجافي الإسلام ولا تعارضه - جريدة الحياة - لندن العدد [11810] بتاريخ 23 يونيو 1995 - ص 19 - تعليق: " الحقيقة أنني لم اختر هذا العنوان بل إن المحرر المسؤول عن صفحة [أفكار] بجريدة الحياة هو الذي أختار هذا العنوان وقد كان المقال معنون بـ [حقيقة الديمقراطية بين الفهم والالتهام]
- (38) عبد الله علي العليان - المثقف العربي - وألويات المستقبل الثقافي - جريدة عمان -

العدد [7513] ص14 انظر كذلك محمد محفوظ - الحضور والمثاقفة - مرجع سابق ص47.

(3) المرجع السابق ص81،82.

(4) مصطفى السادة - ضوابط النقد البناء - مجلة النبأ - مرجع سابق - العدد [52] كانون الأول - 2000 ص6.

(41) محمد محفوظ - العنف والتعصب - مجلة النبأ - العدد [63] تشرين الثاني 2000 ص4

(42) الحركات الإسلامية والحكومات - كتاب العربي - رؤى إسلامية معاصرة - مرجع سابق ص19.